متحف القرون الوسطى

المغرب الجديد
السنة الثانية - العدد الحادي عشر - فاتح ربيع النبوي عام 1355

تستطيع أن تزور هذا المتحف فلا تجول فيه جولة قصيرة حتى تتصل بالقرون الوسطى اتصالا وثيقا وتتعرف إلى هذه العصور التي خبأ التاريخ معالمها ودرس الدهر آثارها ولم يحفظها إلا هذا المتحف الذي يغني عن أشتات الدروس وأساليب البحث في التعرف إلى خبايا ذلك العهد، وهو لا يمثل ناحية واحدة من الحياة، بل يمثل ما تشاء وما لا تشاء من الصور، فإذا زرته كنت على يقين أنك تستفيد وأنك ستصادف في معروضاته ما يفسر لك المخفى أو المبهم من أية جهة تتساءل عنها أثناء درسك لهذه المرحلة من تاريخ الإنسانية.

متحف امتلأ بمعروضات يقصده الفوج إثر الفوج، فلا يجتاز المرء بابه حتى يغفل أنه من أبناء القرن الحالي وينسى أنه يعيش في عصر التطور يناقض المرحلة التي وصلتها البشرية في الزمان الذي يمثله هذا المتحف. يغمر زائر المتحف بمشاهدة أصناف هذه المعروضات فيتلهى بقسم ويعتبر بقسم ويستغرب أقساما: يقف أمام هذه المجموعة من المعروضات فإذا هى تبين عن نفسها وإذا هى تنطق - إن نطقت - عن غريب العادات وبعيد التصورات ومدهش الأحلام والغايات، تنطق عن كل شيء يتصل بالحياة في شؤونها الساذجة، وتياراتها الخافتة، ودبيبها الهادئ المتعثر السير، ومثلها المتهدمة الأطراف المشوهة الخلقة.

فالحياة في هذا المتحف لا تعترف بالتطور، بل إنها تهزأ من كل هذه المراحل التي قطعتها المدنية بعدها، ومهما سعت قاعة الدرس الجامعي أن تصور لك ذلك ببلاغة الأستاذ

الجامعي فهى عاجزة تمام العجز عن تصوير ما يمثله أمامك بوضوح هذا المتحف الذي ينسب للقرون الوسطى حيث عاش البشر على أساليب مغايرة في كل شيء لما يعيشه المرء اليوم ويحياه.

وإذا أسعدك الحظ ودخلت هذا المتحف فلا تتصور أنك ستشاهد معروضات متباينة تحتاج إلى علم المنقب للوصل بينها، بل ينبغي أن تدرك كل الإدراك أنك ستشاهد حياة مستقلة تمام الاستقلال ومعروضات مؤتلفة متعاضدة في تفهيمك لما تريد إزاحة الستار عنه من خفايا ماضي المدنية، فهى معروضات تعتبر في علم الآثار حية لا تحتاج إلى كثير درس ولا إلى عناء بحث، لكى تلمس بيدك ما انطوت عليه من صور وألوان وتتصل مشاعرك بما يدور في خلدها.

ولعلي بعد هذا لا أضطر إلى التصريح بمكان المتحف لتقصده طائفة القراء وتستفيد من مجموعاته، فهذا المتحف غير بعيد المكان ولا غفل العنوان، وليست معروضاته بالغريبة عنا نحن المغاربة، فلسنا إلا إياها، وليس هذا المتحف إلا مغربنا الواسع الأطراف الممهد السبل.

نحن متحف القرون الوسطى، ولم لا نكون متحفا وكل شيء لدينا يمثل الماضي أغرب تمثيل ولا يتصل بالحاضر في شيء ولا يعبر عن أي اتجاه من اتجاهات المستقبل. نمثل الماضي ولكن أى ماض نمثل؟ وأية مرحلة من مراحل الإنسانية نحن متحفها؟

أرى من الواجب أن نكون صريحين في جولتنا القصيرة بهذا المتحف إلى أقصى حدود الصراحة، فالماضي الذي نمثل ليس هذا الماضي الحافل ولا تلك المرحلة التي اجتازتها أمتنا وهى تعدو وراء الرفعة وتصبو إلى المجد، بل هذا الماضي وتلك المرحلة التي ارتخت أعصاب الأمة المغربية فيها واقفة جامدة يسيرها التيار وتتلاعب بها الأمواج كأنما هى خشبة في البحر تقرب من الشاطئ ولكن أى شاطئ تراها مستسلمة إليه؟ أهو شاطئ العراك البشري، شاطئ النشاط والكفاح الشريف أم شاطئ الراحة المميتة والنوم المتواصل؟

لا ريب أن نظرة واحدة على معروضات متحف لا تلقى في ذهنية المرء إلا أننا لا نستيقظ بقدر ما يزداد سباتنا عمقا، ولا نتحرك لنتصل بعصرنا إلا حركة ضعيفة واهنة لا تشعر بدبيبها مهما تسمعته.

والآن نستعرض في إيجاز معروضات هذا المتحف التي هى مظاهر حياتنا والتي هى صور الماضي الذابلة: هذه تربية أولادنا موضوعة على المشرحة لنمعن النظر في عروقها ولنفكر جيدا في نتائجها، أتراها على أسلوب من أساليب التربية الحديثة التي أمدنا بها علم العصر وخبرة التطور؟ أتراها تستمد شيئا من هذه المعرفة التي لا يستحق المرء حياة في زماننا دون أن يرتوى من ينابيعها الصافية ودون أن يتفهم مداخلها العميقة؟

أيكفي أن نجرم ونخرج من العدم الولد فيكون صورة عنا لا صورة عصره وعاملا من عوامل الخراب القاضي على كل شيء إذ ينطلق كحيوان حسبه أن يتابع غرائزه ويستسلم لتياراته النفسية، فإذا دخل المدرسة لا ينتج وإذا خرج منها ضل السبيل فهوى حيث تهوى كل جماعة لا تربية لها؟

وهذا مجتمعنا العائلي أتراه يتطور؟ أتراه شعر بما يحف به وأدرك أى جو يبسطه على النفس والإحساس، جو خانق يسمم المرء فيصبح جثة فاقدة كل مقوماتها المعنوية؟

وهذه أفكارنا أى بون بينها وبين نظريات عصر الظلمات حيث ظل الإنسان مدة لا ينظر حتى في نفسه ولا يفهم معنى لوجوده كإنسان له حقوق وعليه مسؤوليات؟ ألست ترانا لا نزال نجادل في أبسط النظريات التي أصبحت بديهية ونعارض فيما سلمه الجميع وأيده الجميع؟

وهذه عاداتنا وتقاليدنا لا زالت في كل مظاهرها وكل أساليبها متوغلة في القدم، حريصة على صور جامدة لا تبين لك عن روح الماضي ولا حيوية الحاضر إذ تقوم بها جماعاتنا بصورة آلية دون أن تدرى مغزى لها ولا تتفهم سر اعتناق الأجداد لها.

وهذه أعمالنا أتراها خرجت من دائرة الفردية التي تسيطر على الأمم أحط مراحلها؟ أتراها

أصبحت منتجة كما تنتج أعمال العصر ومناسبة للتقدم العلمي ولازدهار المدنية في كل أمم العالم ؟

بل قبل أن نتساءل هل تنتج أعمالنا ينبغي أن نفكر هل لنا أعمال. إننا نستهلك بعض إنتاج المدنية دون أن نساعد في إنتاجها إلا بصورة بسيطة تقارب الصور الأولى للمدنية. والآن لتقف جولتنا في هذا المتحف، فكل شيء يحويه جدير بالمشاهدة. كل ما تضمنه جدران المحيط والصحراء يعيش في الماضي الذابل، ولا يريد أن يعيش في عصره لأن نور العصر لم يلق بشعاعه بعد على هذه الأرض، فويل لأمة من جهلها.